

145-الدوران حول الذات والاختفاء، فى كمفها

الأحياء الأموات: ذلك الموت الآخر

برغم أننا مثلهم لم يستشرنا أحد، قبل أن نقدم إلى هذه الحياة، إن كنا نريدها أم لا، إلا أن الأحياء الأخرى تبيع الورطة، أو تفرح بها بطريقتها، وتقضيها أياما أو شهورا أو سنين، حتى تذهب، بعد أن تترك وراءها بعض خلفها متورطين فيما تورطت فيه.

ربما هم يملونها بقوانين التطور التي لا نعرف إلا بعضها، وهم لا يخطروننا بشئ عنها قبل أن يرحلوا. !!

لماذا لا نفعل مثلهم، ونستعيط، ونتركها كما استلمناها دون تساؤل ربما ينشأ منا صنف أرقى، يستطيع أن يرد على تلك الأسئلة المعطلة عن الحياة، وربما يستغنى عنها تماما.

يبدو أن الأحياء، غير الإنسان، لا تطرح مثل هذه الأسئلة. من هذه الأسئلة الأكثرها سخفا: لماذا نعيش؟ أو كيف السعادة؟ ما هو الحب؟ وما هو الموت؟!!

تُرى أيها أفضل:

أن نكون مثلهم؟ فننقذ أنفسنا من إضاعة الوقت، ونرحم عقولنا ووجداننا من الإجابات السلبية أو السطحية؟

أم أن نحترم ما ابتلينا به من وعى وقدرات ونحمل الأمانة ونرى؟.

وبعد

إذا صح ما ذهبنا إليه من أن الأطفال يعرفون الموت الحقيقى بالمعنى الذى قدمناه فى **يومية 5-1-2008 "الموت: ذلك الوعى الآخر"** وهو ما يتفق مع بعض التنظير والأساطير والأديان، أن الموت وعى بين الوعيين، فماذا لو فتحنا أكثر ملف الموت عند الكبار؟

الكبار يتعاملون مع مفهوم "الموت" باعتباره مرادفا للفقْد أو الاختفاء أو العدم وذلك بفكرهم التجريدى، وعقلهم المنطقى، وإجراءات الظاهر من غياب ودفن وذهاب بلا عودة،

فهل هذا هو كل ما عندهم؟

ألا يوجد مفهوم آخر لما هو "موت"، يمكن أن يقترب من مفهوم الأطفال من ناحية، ومن الحقيقة من ناحية أخرى؟

لا نريد أن ندخل، حتى مضطرين إلى وضع تعريف جامع مانع لما هو موت، حتى لا نقع في اختلافات مضحكة مثل التي تدور بين الأطباء حول تعريف الموت الإكلينيكي من الموت الكامل... الخ. ومع ذلك، فنقطة بداية لازمة هي أن نحاول أن نتعرف على عمق ما هو "موت" متجاوزين التعريف المفاهيمي السلوكي المنغلق.

يمكن أن نصنف بعض تشكيلات أو أنواع الموت إلى ما يلي:

1. **الموت السلوكي** = العدم، الفقد، الاختفاء بلا رجعة (ما يقره الكبار والسلطات)

2. **الموت الوعي بين الوعيين** = اليقين الحاضر منذ الآن بلا تفاصيل وبلا رعب (ما يعرفه الأطفال مثلما علمنا أندرسون وغيره).

3. **الموت الجمود التوقف**، الاحركة، حتى ولو لبس ظاهر الحركة الزائفة وكأنه الحياة

• **الموت السلوكي** نحن نعرف آثاره ولا نعرفه.

• **والموت الوعي بين الوعيين** هو فرض لا يمكن حالياً التحقق منه، والله سبحانه أعلم به

• **أما الموت الجمود (اللائقو - السير في المحل - الدائرة المغلقة - الاغتراب المغلق)** فبعض جوانبه هي التي سنتناولها هنا الآن:

سبع جنازات

بمراجعة الفصل الأول من ديوان "أغوار النفس" وهو بعنوان "سبع جنازات" تبين أنها جميعاً قد تناولت الموت من النوع الثالث باعتبار أنه **اغتراب شديد مستمر ثابت**، حتى لو ظلت أنفاسنا تدخل وتخرج، وكأننا نحيا.

• هو جهود مستقر،

• هو رضا باهت،

• هو تكرار خادع،

• هو حركة في المحل،

• هو إصرار على رفض أي تغيير في أي اتجاه معلن أو خفي،

• هو الدوائر المغلقة بإحكام على نفسها،

وبالتالي يمكن أن نتعرف على الحياة الحقيقية على أنها هي عكس ذلك:

- هي كسر الاغتراب،
 - وهى وإن لزم أن تسكن في بعض أطوارها فهو سكون إلى حركة حتمية،
 - وهى رضا يقظ في حالة استعداد للمراجعة،
 - وهى "حركة" حتى لو كانت إلى الخلف فقد تكون لقفزة أمامية أوسع،
 - وهى التغيير الكيفى يسبقه عادة تراكم كمى،
 - وهى الدوائر المفتوحة النهاية.
- هذا بعض ما تناوله نجيب محفوظ في ملحمة الخرافيش، وما قدمه الكاتب نقدا في دراسته Link قراءة في نجيب محفوظ.

قراءة في بعض مقتطفات الجنازات:

المقتطف الأول:

مر الهوا صفراً، سمعنا الصُوت كإن النعش يئطع كلاماً:
 "لأ..، لسه..، إسكُتْ..، لَمْ حَصَلْ،
 سيمًا .. ، ياتأكسى، .. لسه كام ؟"
 أى كلاما .

ألفاظ زينته، مشكينه،
 بتزقزق، وتضوضو،
 .. وخلص!!

من أهم علامات الموت حياً أن نتبادل ألفاظا كثيرة وهى تحمل معان قليلة، أو لا تحمل معنى إطلاقاً، ليس معنى هذا أن هذا اللفظ ليس له وظيفة، لكن أن يصل الأمر إلى أن تصبح الألفاظ زينة، فهى فعلا تصبح مسكينة، ونحن نصبح أمواتا.

حكاية أن العلاج النفسى هو "علاج بالكلام"، وأن "الواحد لازم يفضفض"، وأنه "يطلع إالى جواه" هى حكايات ينبغى أن تراجع علما وحياة وعلاجاً.

هذا المفهوم للعلاج النفسى والتحليل النفسى هو مفهوم "مسلسلاتى" أكثر من أى شئ آخر، حتى أنه لم يعد علما أو حرفة، إلا فيما ندر، إما لسوء فهم ما هو التحليل النفسى، وإما بهدف البحث فحسب.

أحيانا، بل غالباً، ما يكون الكلام هكذا بطلاقة حرة عن الماضى، والعقد، والأسباب معطلا لما علينا أن نقوم به من مهام وعلاقات "هنا - و- الآن" نتجاوز بها ما كان، وما هو معطل لنا حالا. هذا ما يدل عليه المقطع التالى من مقدمة الجنازات الذى ينقد بشدة الشكل التقليدى للعلاج النفسى، والتحليل النفسى، كما شاع بين الناس، أكثر مما هو.

المقتطف الثاني:

واحدُ نائمٍ مَنصَلطُحٍ، وُغْنِيه تَتَفَرِّجُ:
 على رسمِ السقفِ وُغَلَى أفكارُ والى بتلف،
 تُلِفُّ، . تُلِفُّ،
 وكلام في كلام .. هاتك يا كَلَام . يا حرام!!
 والتاني قاعد لى وراه ، على كرسى مدهَّب.
 قلبه الأبيض طيب. وسماعه لَم يُتَعَيَّبُ،
 عمال بيغسُرُ أحلامَ

وصاحبنا يرص في أوهام ،
 وُعُقْدُ، ومركب، و"المكتوب"
 وقدرُ"، وحقاوى، وُوضِفَ ذُنُوب.
 وأخينا شفايفُه قفل رُصاص،
 وودائهُ يا خويا شريط حَسَّاس.
 يسمعُ حكايات .. حكايات،
 وتمر ساعات وساعات،
 (ما أظنَّش أيوب مات).

"إشى عدى البحر ولا اتبلَّش"؟؟

"قالك: إلجعل في بطن امه"!!

أرزاق ..!

وخليق لابسه الوش زواق.

هذا الوضع الذى ينتقده هذا المقطع ليس قاصرا على ما يسمى التحليل النفسى، أو العلاج النفسى بالكلام، لكنه يمكن أن يمتد إلى كثير من أشكال الاغتراب في رص الكلام أثناء العلاج وغيره، وأيضا قد يسرى على محاولات التفسير والتأويل، حتى تصبح وظيفة كل هذا هو أن "يستمر الحال كما هو عليه"، فقط يخف التوتر المصاحب، بعد أن نعثر على التفسير، الذى قد لا يعدو أن يكون تبريرا لا تفسيرا. إن مفهوم الموت باعتباره اغترابا معطلا لحركة النمو يمكن أن ينطبق على كثير من هذه الممارسات.

ليس معنى ذلك أن البديل هو العقاقير، مع أنها عامل مساعد مهم جدا، أو العلاجات الفيزيائية عامة دون حساب، ذلك أن إعطاء العقاقير نفسه بدون حسبة الحركة والسكون (الموت والحياة) قد يؤدي إلى تكبيل نبض الدماغ (الإيقاع الحيوى للمخ) بإلغاء تبادل المستويات لحساب نوع من التسكين الأيسح الذى نلاحظه على كثير من المرضى الذين يتعاطون المثبطات الجسيمة طول الوقت، وأحيانا طول العمر. هذا النوع من الموت له ضده حين يصبح العلاج تحريكا مواكبا لنبض النمو، (وهو ما نتبناه هنا طول الوقت).

المقتطف الثالث: من شطى لشطى
(1)

الشط التاني المِش بايين:
كل ما اقرب لهُ، يتاخِر.
ومراكب، وقلوع، وسفاين،
والبحر الهبؤ مالوش آخِر.
(2)

لأ مِش لاعب.
حاستني لما اعرف نفسي، من جوه.
على شرط ما شوفيشي اللي جوه.
واذا شفته لقيته مش هوه،
لازم يفضل زئ ما هوه.
(3)

أنا ماشي "سريع" حوالين نفسي،
وباصبح زئ ما بامشي،
وان كان لازم إني أعدي:
زاخ اعدي من شطى لشطى، هؤا ذا شَرطي.
(4)

وخذ ما يهدى الموج،
واشترى عؤامة واربطها على سارى الخوف،
ياللا نقول "ليه"؟ و"ازائ؟"
"كان إمتي"؟ "يا سلام"! "يبقى انا مظلوم".
شكر الله سعيك!!

حتم المخاطرة

هذه الصورة توضح شكلا أكثر تحديدا من الحركة في الحبل بدون قطع أية مسافة.

قد يهم الواحد منا أن ينتقل مما هو عليه، أن يغير ما شعر أنه تعطيل وتكرار، هو قد يغامر في سبيل ذلك بمحاولة النقلة إلى ما لا يعرف.

النمو الحقيقي (الحياة) لا يمكن أن نعرف تفاصيله مسبقا، مهما استعدنا له، إن أنت خطوت خطوة إلى ما تتصوره تطورا أو نموا، وأنت واثق مائة في المائة من طبيعتها، ومآلها، وتفاصيل مراحلها، فأنت واهم، إذ ليس هناك في النمو شيء كهذا.

الإيمان بالغيب الذي هو أساس في الإيمان، يحمل مثل هذا التأكيد على أنه لا حركة إلا وفيها جزء مجهول تماما.

حتى تأخذ بمخاطرة النمو أنت تُبحر دون أن تعرف مسبقاً بشكل محدد : أين ومتى تستقر على الشاطئ الآخر، كل ما عليك هو أن تحذق فن الإبحار والمهارات الضرورية المصاحبة، مثل العموم مثلاً.

قواعد النجاة التي تقولها المضيغة في الطائره ولا يسمعها أحد، هي أقصى ما يمكن أن تتسلح به في مخاطرة الإقلاع من مرحلة نمو إلى أخرى.

طالما الخريطة ليست بمقياس رسم ثابت، وأن الميناء القادمة تقع على مسافة متغيرة، فالإنسان الحي (الذي يقبل مغامرة الحياة النامية) يشعر دائماً أن الحركة ليست قاصرة عليه، بل هي واردة أيضاً فيما يتعلق بهدفه".

الشط الثاني المشُ بايُن: كل ما قرّب لهُ، يتأخر.

هذا فضلا عن مفاجآت غموض العلاقات المتشابكة مع آخرين يحاولون أو لا يحاولون بطريقة أو بأخرى. النهاية مفتوحة دائماً".

ومراكب، وقلوع، وسفائن،

والبحر الهيو مالوش آخر.

البديل الدائري

حين يربعنا الأهل من مخاطرة النمو، ثم يربع كل منا نفسه من مخاطر المحاولة، إذ نتصور - بحق - حتم مراجعة كل شيء تقريبا، دون تأمين مطلق، يعدل أغلبنا عن الحركة، نتوقف.

مسموح أن نتوقف مؤقتا حتى نتجمع أحسن، ونستعد أكثر، لكن هذا الاستعداد قد يستغرق العمر كله، فيتثبت الموجود بشكل مزمّن حتى يتحجر، كثيرا ما ننهي المرضى عن الإفراط في تعبير "أحاول، أحاول، باحاول"، لأن مثل تلك الألفاظ تعدّ ولا تفي في معظم الأحيان.

المحاولة التي لم تبدأ بحظي التجريب الواضح المرصودة خطوات إيقاعه، ليست سوى تأجيل مطلق.

الأخطر خداعا أن يكون المرر لهذا التأجيل هو إشاعة "البحث عن الذات" بالاستبطان والتأمل في الداخل، بمعنى أن يتصور أي منا أنه لا بد أن يعرف من هو حتى يقرر ماذا يريد، أو أنه لا بد أن يحقق ذاته حتى ينطلق منها، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا من خلال معرفة معالم نفسه ظاهرا، وباطنا. هذه كلها إشاعات معطلة، لا أحد يعرف نفسه كما يتصور، طالما نحن ننام ونحلم، فسيظل أغلب جبل الجليد تحت سطح البحر، لكن ذلك لا يمنع البخر والسحاب والري أن يغمروا الدنيا من خلال حركية النمو المغامر.

هذا الزعم "أعرف نفسي من جوه، يصبح أكثر خداعا حين

تكون تلك المعرفة هي أقرب إلى التغطية، بمعنى أنه في كثير من الأحيان، نحن نعرف، أو نتصور أننا نعرف، ما ليس نحن، أي أننا نعرف الممكن الذي في المتناول، والذي هو ليس بالضرورة حقيقة الداخل، وكثير منا يطمئن إلى ما تصوره نفسه، لأنها ليست كذلك، بل إنه - من فرط إرعاب المحاولة، والإغراء بإجهاضها- قد يعدل عن المحاولة إلى أن يتصور أنه مطمئن إلى أساليب الخداع تلك"

لأَمْشٍ لَاعِبٍ.

حاستنى مَا اعرف نفسي، من جَوْه .

على شرط ما شوفيشي اللى جَوْه ."

إن كان الأمر كذلك، أنه مستعد أن يرى على شرط ألا يرى، فماذا لو خابت حسبه ورأى بعض حقيقته .

في أحيان كثيرة تحل الرؤية محل الحركة .

كثيرون من يتعرضون للتحليل النفسى، أو يقومون به يستبدلون بحركية النمو، نوعا من اللفظة والتفسيرات المعقنة، وكأن التفسير والتأويل أو ما يسمونه "فك العقد" هو غاية المراد من هذه العملية. يحدث مثل ذلك في الحياة العامة أيضا، حين يصبح اكتشاف السبب هو لتثبيت ما كان، وليس لتغييره، حيث لا يكون التغيير هو المطروح، وإنما التبرير، بل إن المقاومة كثيرا ما تبدأ بعد "معرفة ما ينبغى أن يتغير في نفسى"، وكأن المحصلة في النهاية هو تأكيد الجمود، لا تحريك الثابت"

وإذا شفته لقيته مش هُوّه .

لازم يفضل زى ما هُوّه .

أجد من الضروري أن أذكر القارئ أن هذا التصوير من الداخل، وعلى لسان داخل الداخل، عادة يبدو متناقضا مع الظاهر، فهو ليس إلا تقمصاً لأعماق حقيقة ما جرى في الأعماق، وكل منا - تقريبا دون استثناء- يجد نفسه جاهزا لنفى أى من ذلك، ولكن لا مانع عنده من أن يقره ويتقبله إذا ما تصوره وصفا لأحد سواه!!!

إذا ما حدث مثل ذلك فالتقطه خبير فاهم محب، سواء كان معالجا أو طبيبا أو مربيا أو أيا من كان، فقد يبادر بتقديم العون بطمأنينة من يعيش كل هذا الخوف والتردد والإصرار على الثبات على الوجود، برغم مظاهر ظاهر المحاولة، لكن مثل هذه الطمأنينة تبدو غير كافية، وقد يتمادى اختبارها بفرض شروط عدم المعاناة، وعدم المخاطرة، بل وأحيانا خدعة التغيير دون تغير، ومع ذلك تظل الحركة وكأنها نشطة ومستمرة، لكنها في واقع الحال حركة في الخلل، أو بتصوير شائع مثل الكلب الذى يحاول أن يعض ذيله، مع التأكيد بأن تكون الغاية هي نقطة البداية ."

أنا ماشى "سريع" حوالين نفسى،
وباصبح زى ما بامسى،
وان كان لازم إني أعدي:
زآخ أعدي مِنْ شَطَى لَشَطَى،
هوَ دَا شَرَطَى.

ما معنى ذلك؟ خاصة إذا علمنا أن هذا هو موقف أغلبنا في نهاية النهاية؟ هل نحن نفضل أن نخدع أنفسنا إلى هذه الدرجة؟

لا بد من توضيح أن الصورة فيها بعض التكبير حتى تتضح المسألة، وأننا بهذه التعرية لا نرفض السير في الحبل، أو تكرار الدوران في نفس الدائرة، لأن مسار التطور والنمو لا يتطلب المخاطرة المستمرة طول الوقت،

قانون الإيقاع الحيوى يحتم التراوح بين طورين متبادلين طول الوقت، الاستعداد، فالانطلاق، أو بالألفاظ أخرى الامتلاء ثم البسط، وهو هو ما يقابل نبض القلب يتم في كل نبضه ملء جراته بالدم، ليجد الانقباض ما يدفعه حين يحل دوره .

إذن فهذه التعرية ليست حفزاً للإسراع بحتم التغيير ، وإنما هي تنبيه ضرورى لوقف الخداع بزعم التغيير والتغير. حتى لو ظلت الحركة في الحبل، وتواتر الدوران حول نفس المحور، فإن المطلوب هو أن يكون ذلك تمهيدا لنقلة التغيير في الوقت المناسب، الذى لا نعرفه تحديدا، ومن ثم حتم المخاطرة .

التأجيل التأجيل هو التسكين الدائم

حين تصل مقاومة التغيير - تغير الذات، يعنى استمرارية مسيرة النمو- إلى أقصاها، يصبح التأجيل شديد العنف، ويتقدم مبدأ "السلامة أولا" على كل الاعتبارات، يصحب ذلك بديهة المبالغة في الخوف من كل شىء، لأن الذى تعرفه أحسن من الذى لا تعرفه، ولأن ما ولدنا عليه واعتقدناه أنه هو السليم حيث "هكذا وجدنا آباءنا"، حتى اختلافنا مع الجيل السابق يصبح شكليا، فتقوم المعارك، وتحدث المناقشات، بل والمصادمات، لتثبت الأيام أن المسألة هي وجهان لنفس العملة **ولقد ما يهدى الموج**، هذا ما تشير إليه الفقرة الأخيرة من الصورة المقدمة .

إن المبالغة في ضرورة الحصول على ضمانات مسبقه حتى أسمح لنفسي بالتغير هي ضد التغير مهما كانت تيدوا نوعا من الحرص لتجنب المخاطر التي هي حقيقية من حيث احتمال عدم إكمال تجربة التغيير إلى ما هو أفضل وأقدر، فتجهد المحاولة دون إمكان الرجوع حتى إلى شط الإقلاع، وأيضا احتمال التراجع عن استكمال رحلة النمو، مع عدم التمكن من العودة إلى ما سبق .

"عابز أرجع زى ما كنت"، هذا التعبير الذى يردده كثير من المرضى والعاديين والأهل، وهو تعبير لهم الحق في ترديده، لكنه يحمل ضمنا وقف حركية النمو أصلا.

لا أحد يعترف أنه توقف عن المحاولة، وبالتالي أي منا يملأ وقته بجذاع البحث عن الأسباب كلاماً، وتبريراً.

عادة ما يكون هذا التبرير منتهياً إلى أن ينعى كل منا حظه، ويضع اللوم على الناس والظروف، وهات يا نعابة نتبادلها طول الوقت، ودمتم.

"وخذ ما يهدى الموج،

واشترى عوامته واربطها على سارى الخوف،

ياللا نقول "ليه"؟

و"ازاى"؟

"كان إمتى"؟

"يا سلام"!

"يبقى انا مظلوم"!!

شكر الله سعيك.

The Man & Evolution FORUM Web Site

<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/>

Forum Subscription

TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr

Mail To Forum Participate

TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com

FORUM INVITATION

www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf